مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد(19) – العدد (39) (ديسمبر، 2018) ص199- 212
ISSN 1111-5149 /E.ISSN 2430-2588

التفسير البياني عند القدامى والمحدثين

-دراسة في المصطلح والتأصيل-

Interpretation of the rhetoric the old and modern

-A study in term and rooting-

حاجي خولة،[1] جامعة العربي التبسي،Khokhitta.loula@yahoo.com

تاريخ الاستلام:2018-07-12 تاريخ القبول: 2019-02-10

ملخص:

يأتي هذا البحث أولا ليقف على مفهوم التفسير البياني من خلال الحفر في دلالة المصطلح ومحاولة فهم كنهه ومحتواه، ثم ينطلق إلى تتبع تاريخه بداية من جذوره الأولى التي تعود إلى ما قبل عصر التدوين؛ تلك الجذور التي أغفلتها جل الدراسات السابقة والتي حاولنا التركيز عليها في هذه الدراسة، ولا يقف البحث عند ذلك فحسب بل يتعداه إلى تتبع امتداد التفسير البياني في العصر الحاضر، ودراسة تطوره على يد مجموعة من المفسرين البيانيين الذين أصّلوا مبادئ وخطوات هذا المنهج.

الكلمات المفتاحية: التفسير، البيان، التفسير البياني، التفسير البياني عند القدماء، التفسير البياني عند المحدثين

Abstract

In brief this research comes first to stand on the concept of the rhetoric interpretation through digging in the term intrinsically with its content. Then it proceed to follow the history of its first roots which goes back to pre-Era codification

Those roots that had been neglected by all previous studies. Moreover this research doesn't stop her but it over goes to track along the rhetoric interpretation in present time studying its progression by some rhetoric interpreters who had founded the principles and the steps of this curriculum

Key words: interpretation, statement, rhetorical, rhetorical interpretation of the ancients, the rhetorical interpretation of the modernists

[1]- حاجي خولة، جامعة العربي التبسي – تبسة – الجزائرKhokhitta.loula@yahoo.com

مقدمة:

يكاد يجمع المختصون في مجال التفسير والإعجاز على أن ظهور التفسير البياني كان مرتبطا بظهور المصطلحات البلاغية والنقدية في صدر العصر العباسي، وفاتهم أن قوم الفطرة في صدر الاسلام الأول قد درسوا القرآن دراسة من يعرف مناحي البيان وإن فاتتهم تسمية مصطلحاته، إذ عرفوا بفطرتهم وسليقتهم مكان الإيجاز والإطناب ومواضع الحقيقة والمجاز، وقد نقل عنهم في ذلك ما يصلح أن يعد اللبنة الأولى في التفسير البياني للقرآن الكريم.

الهدف من الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تتبع مصطلح التفسير البياني ودراسة تاريخه من خلال تلمس الأصول الأولى والجذور البعيدة للتفسير البياني لإعطاء كل ذي حق حقه، ولمعرفة فضل السبق في هذا الاتجاه التفسيري.كما تهدف إلى دراسة التفسير البياني في العصر الحديث لبيان الحدود الفاصلة بين التفسير البياني نظريا وتطبيق، ولبيان ما أصابه من تطور أم ركود عبر الزمن.

أهمية الموضوع:

يعد الخوض في هذا النوع من التفسير من الأهمية بمكان لأنه يعنى بالبيان القرآني المعجز الذي شمل القرآن بأكمله، وكان موطن التحدي للعرب الفصحاء الذين وقفوا أمامه عاجزين ومنبهرين بنظمه الفريد وأسلوبه البديع المخالف لأساليبهم التي ألفوها في خطبهم وأشعارهم، فالدراسات البيانية للقرآن الكريم كثيرا ما تكشف عن وجوه الإعجاز.

إشكالية الدراسة:

إن الخوض في هذا الموضوع يحتم علينا الإجابة عن الأسئلة الآتية:

_ ما الجذور الأولى للتفسير البياني؟

_ ما امتدادات التفسير البياني في العصر الحاضر

_ ما الحدود الفاصلة بين التفسير البياني نظريا وتطبيقا؟

_ هل نضج التفسير البياني واحترق أم أنه ما يزال يستدعي من ينضجه مستقبلا؟

المنهج المتبع:

للإجابة عن هذه الأسئلة سنعتمد على المنهج التاريخي ونتناول المحاور الآتية:

خطة البحث:

المحور الأول: التفسير البياني

أولا: التفسير: لغة واصطلاحا

ثانيا: البيان: لغة واصطلاحا

ثالثا: تعريف التفسير البياني

المحور الثاني: التفسير البياني عند القدماء

أولا: الجذور الأولى للتفسير البياني

ثانيا: التفسير البياني في عصر التدوين

المحور الثالث: التفسير البياني عند المحدثين

أولا: بوادر التفسير البياني عند محمد عبده

ثانيا: أمين الخولي و دوره في تأصيل المنهج البياني في التفسير

ثالثا: التفسير البياني عند السامرائي

المحور الأول: التفسير البياني

إن الحديث عن التفسير البياني أمر شيّق وشائك في نفس الوقت، شيّق لأنه يهتم بجمال التعبير ودقّته ،ويبين ما في الآيات من معاني ولطائف بيانية رائعة لا يستطيع المفسر التقليدي تناولها بالشرح، وذلك لأن التفسير البياني غني بالمعطيات التي يستطيع المفسر النظر فيها ومحاولة فهمها وإبداء رأيه فيها من خلال تعليلاته لسبب الاختلاف بين الصيغ والتراكيب أو دلالة الألفاظ وغيرها من الأمور التي يهتم بها المفسر البياني، فنجده يتتبع المواضع المتشابهة ويحاول فهم القرآن كبنية واحدة، ولا يدرس الآية كبنية معزولة عن بقية الآيات والسور، وذلك ليحيط باللفظة أو بالآية من كل أطرافها ومواضع ورودها ومعانيها المختلفة في كل موضع ليكشف لنا المعنى الكلي أو المعنى المقصود.

لكن من الصعوبة بمكان الإحاطة بالمعنى الكلي، أو المعنى الحقيقي المقصود، وهذا الذي يجعل من التفسير البياني أمرا شائكا كما تقدم، فالمصطلح القرآني من وضع الخالق سبحانه وتعالى وليس من وضع البشر، لذلك يظل فهم البشر نسبيا مهما حاولوا الفهم والتدقيق والتعليل _هذا من ناحية_ ومن ناحية أخرى شائك لأنه متداخل بين التفسير والبيان وفي كليهما أبواب عريضة من الصعب حصرها، وذلك لأن البيان نفسه كمصطلح وكعلم فيه نظر وجدل واختلاف بخصوص تحديد معناه وأقسامه ومجالاته،كما أن معظم المفسرين البيانيين لم يحددوا تعريفا للتفسير البياني، ولم يؤلفوا كتبا نظرية مختصة في مفهومه وخطواته وقضاياه إلا بعض الخطوات المبدئية التي وضعها أمين الخولي في كتابه "التفسير معالم حياته ،منهجه اليوم" ولكنها ظلت خطوات نظرية ومحاولات جزئية بعيدة عن التطبيقي الكلي

والهدف الأساسي، كما سنوضح ذلك في المحور الثالث من الدراسة والمتعلق بالتفسير البياني عند المحدثين.

أما المحور الأول سنخصصه لدراسة المصطلح قصد رسم خطوطه العريضة ابتداء من عرض مصطلح التفسير على حدة ومصطلح البيان على حدة، ليتسنى لنا فهم المصطلح المركب من المصطلحين ألا وهو التفسير البياني.

أولا: مصطلح التفسير

1_تعريف التفسير لغة: مأخوذ من الفسر بمعنى البيان والكشف، ومنه قوله تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا" الفرقان33

والتفسير في اللغة مصدر على وزن "تفعيل"، والفعل الماضي من التفسير هو الرباعي "فسّر"، يقال: فسّر الشيء تفسيرا، والجذر الثلاثي للكلمة هو (ف.س.ر)، قال الإمام أحمد بن فارس عن الفسر" الفسر كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه.(ابن منظور، (د.ت)، ص55).

وقال ابن منظور في لسان العرب عن الفسر: البيان، فسّر الشيء يفسّره بالكسر، ويفسره بالضم، فسرا، وفسّره: أبانه، والتفسير مثله. والفسر كشف المغطى، والتفسرة: البول الذي يستدل به على المرض، حيث ينظر فيه الأطباء فيستدلون به على علة المريض، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته، والتفسير: البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل"(الرومي، 1419هـ، ص7)

ومن الواضح أن معظم المفاهيم المعجمية لهذه المادة تدل على أن التفسير مشتق من مادة "ف.س.ر" وهي بمعنى البيان والإيضاح والكشف، وإزالة الإشكال، ولكن نجد أن هناك رأيا آخر لدى بعض علماء اللغة يقول إن التفسير: مقلوب من "سفر "ومعناه أيضا: الكشف، يقال: سفرت المرأة سفوراً إذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء، وإنما بنوا "فسر" على التفعيل فقالوا "تفسير" للتكثير.

وقال الراغب الأصبهاني: "(الفسر) و(السفر) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل "الفسر" لإظهار المعنى المعقول...وجعل" السفر" لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح".(الرومي، 1419هـ، ص7)

ومن خلال ما سبق يتبين أن التفسير مشتق من الفسر، والاشتقاق الأصغر من هذه المادة "الفسر" يدل على معناها الأصلي وهو البيان والتوضيح والكشف والإظهار، وكذا الاشتقاق الأكبر لمادة فسر يدل على الظهور والإيضاح والبيان مع اختلاف طفيف في اللفظ والمعنى.

2_تعريف التفسير اصطلاحاً:

بعد أن أوردنا تعريف التفسير لغة واستخرجنا اشتقاقاته، يجدر الإشارة إلى أن التفسير في الاصطلاح يشمل مستويين: تفسير النصوص عامة وتفسير القرآن

خاصة، وسنقتصر في هذا الموضع على تعريف هذا المصطلح بعد أن صار علما يطلق على معاني القرآن ويختص بشرحه وإيراد معانيه، وتوضيح مبهمه دون غيره من النصوص الأخرى.

ومن بين تعريفات علم التفسير نذكر تعريف أبي حيان التوحيدي: "التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك". (كافي، 2006، ص17)

كما عرّفه محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره "التحرير والتنوير" بقوله: "التفسير اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع.... وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه".(ابن عاشور،1984،ج1، ص11)

ومن خلال التعريفات السابقة يمكن أن نقول إن التفسير هو: علم يعنى بالبحث عن فهم كتاب اللّه المنزّل على رسوله صلى اللّه عليه وسلم، وبيان معانيه، وتوضيح ألفاظه واستخراج أحكامه بقدر الطاقة البشرية التي تتطور بتطور الفهم، واستخدام الوسائل المساعدة لإدراك المعنى المقصود.

ثانياً: مصطلح البيان

1_تعريف البيان لغة: نجده في لسان العرب بمعنى: التوضيح والإظهار، يقول ابن منظور: " البيان ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانا: اتضح فهو بيّن، والجمع أبيناء، مثل: هيّن أهيناء، واستبان الشيء: ظهر، وأستبنته أنا: عرّفته ".(ابن منظور، (د.ت)،ص198)

ويزيد موضحا معنى البيان بقوله: "والبيان: "الفصاحة واللسن، وكلام بيّن: فصيح، والبيان: الافصاح مع ذكاء. والبيّن من الرجال: الفصيح".(ابن منظور،(د.ت)،ص199)

2_تعريف البيان اصطلاحاً: البيان اصطلاحا: "أصول يعرف بها ايراد المعنى الاحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على ذلك المعنى".(الهاشمي،2007،ص244-245)

وهذا الذي يوضحه القزويني -في تعريفه للبيان-بقوله: "علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه".(القزويني، 1904، ص235)

ومعنى هذا أنه يشمل الدلالة على المعنى أي التوضيح، وتعدد الطرق لذلك.

ويرى الجاحظ_وهو أول الذين وضعوا أسس هذا العلم _ أن البيان:"اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القارئ والسامع إنما هو الفهم والإفهام،

فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع".(الجاحظ،1998، ص54، وص76)

وهذا هو المعنى الشامل للبيان، والذي خرج به المحدثون عن تقسيمات البلاغة وتقييدها، ليشمل بذلك التفسير البياني كل ما يدل على المعنى بطرق متعددة، وهذا الذي سنوضحه في تعريفنا للتفسير البياني.

ثالثاً: مصطلح التفسير البياني

لم يضع المفسرون البيانيون تعريفاً واضحاً للتفسير البياني كما سبق و أشرنا وبناء على ذلك فقد اجتهدنا في الحصول على تعريفين للتفسير البياني، عسى بالجمع بينهما يتضح معنى التفسير البياني.

التعريف الأول: يقول أبي سليمان الخطابي في كتابه: بيان اعجاز القرآن-بعد حديثه عن إعجاز القرآن البياني وتحكمه في زمام البلاغة والفصاحة وأسلوبه الفريد الذي يعد مثلا أعلى في صناعة البيان: "وخلاصة الأمر أن هذا البيان القرآني يجمع أمورا جملتها النظم الفريد العجيب الحسن المخالف لأساليب العرب، والصور البيانية التي تؤلف أبدع تأليف بين أفصح الألفاظ الجزلة وأصح المعاني الحسنة".(الرومي،1419هـ، ص106)

التعريف الثاني: يقول الدكتور فاضل صالح السامرائي في تعريفة للتفسير البياني: " هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني. فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير".(السامرائي، 2002، ص7-8)

ومن خلال التعريفين نستطيع أن نقول إن التفسير البياني هو التفسير الذي يعنى بأسرار التعبير القرآني والنظم الفريد من ناحية عنايته بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمختلف والمتشابه وغير ذلك، ويعنى بالألفاظ الجزلة والمعاني الحسنة من ناحية اهتمامه بالصور البيانية.

فاتجهت همة طائفة من المفسرين إلى هذه الوجوه البيانية وأولوها عنايتهم واتسعت الدراسات حولها، وقد ظهر هذا اللون من التفسير في تفسير الرسول صلى اللّه عليه وسلم والصحابة رضي اللّه عنهم كما سنبين ذلك في المحور الثاني من الدراسة.

المحور الثاني: التفسير البياني عند القدماء

أولا :الجذور الأولى للتفسير البياني:

تعود الجذور الأولى للتفسير البياني إلى صدر الاسلام حيث يعتبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم أول من فسّر القرآن ووضّحه لقومه امتثالا لقول اللّه عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم﴾ (النحل 44)، ونجد في تفسيره جملة من التلميحات البيانية نذكر منها تفسيره لقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ (البقرة 187).

ببياض الليل وسواد النهار منتقلا في ذلك من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي.(البيومي،1971، ص11-12)

ما ظهرت بذور التفسير البياني في تفاسير الصحابة رضوان اللّه عليهم ومن أشهرهم تفسير ابن عباس رضي اللّه عنهما إذ اشتهر بالتفسير اللغوي لكتاب اللّه الذي يرجع فيه إلى تراث العرب وأشعارهم.

ولم يكتف ابن عباس في استشهاداته بالشعر الجاهلي بل تعداه الى الشعر المخضرم وشعر صدر الإسلام، لأنهم حسب رأيه فصحاء ينتمون الى عراقة الجاهلية بأصالتهم الصرِيحة.(البيومي،1971، ص1)

وإذا كان ابن عباس قد زرع بذرة التفسير البياني فقد سقاها تلامذته ونحوا نحوه، فتجد أن ملامح هذا النوع من التفسير غالبة على تفاسيرهم من أبرزهم "مجاهد" و "عكرمة" و"طاووس" و"ابن جبير" وابن أبي رباح" وغيرهم.

بعد أن عرضنا للجذور البعيدة التي قد أهملت في معظم كتب الإعجاز و التأريخ للتفسير البياني يمكننا الانتقال للدراسات البيانية في عصر التدوين و التي تبدأ غالبا بكتاب مجاز القرآن "لأبي عبيدة معمر بن المثنى " (ت 210 ه).

ثانياً: التفسير البياني في عصر التدوين :

أول من نصادفه في هذا العصر "أبو عبيدة" الذي وضع اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن الكريم وذلك في كتابه" مجاز القرآن " الذي تعرض فيه للنصوص القرآنية وما تدل عليه من حقيقة ومثل وتشبيه وكناية وما تتضمن من ذكر وحذف أو تقديم وتأخير، ولم يكن يقصد بالمجاز حينئذ ما هو قسيم الحقيقة وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية. (الرومي، 1997، ص997)

وخاض في تلك الفترة عدد من المؤلفين في هذا المجال، فألف الفراء (ت 207 ه) كتابه "معاني القرآن"، وقد خاض مثل ما خاض فيه أبو عبيدة من ألوان العربية واللمسات البيانية إلا أنه غلّب النحو في منهجه التفسيري، وتوسع في توجيه القراءات.

وجاء بعدهما الجاحظ (ت225ه) فكتب "نظم القرآن" وهو كتاب مفقود لكن الجاحظ نفسه وغيره من الدارسين أشاروا في كتبهم إلى قيمة هذا الكتاب ولطائفه البيانية، كما كتب "الحيوان" و" البيان و التبيين" اللذين اشتملا على كثير من الاشارات البلاغية في القرآن. ومع أن الجاحظ لم يترك لنا كتابا مستقلا بالتفسير إلا أنه يعد رجل التفسير البياني الأول بوقوفه على كثير من آيات القرآن بالدراسة والشرح والتحليل.

وجاء بعد الجاحظ "ابن قتيبة" (ت 276 ه) و اشتهر بكتابه " مشكل القرآن " الذي رد فيه على الطاعنين في بلاغة القرآن.

أما في القرن الرابع الهجري فقد اختار أغلب أصحاب هذا اللون من التفسير عنوان: "اعجاز القرآن" فألفت فيه العديد من الكتب من بينها كتاب "النكت في إعجاز القرآن" لـ: الرماني(ت384ه)، و "بيان إعجاز القرآن" لـ: الخطابي(ت386ه)، وكتاب «إعجاز القرآن" لـ الباقلاني (ت403ه)، وكتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار(ت415ه) والذي خصّ إعجاز القرآن بجزء مستقل.

ومن أشهر من اهتم بهذا اللون من التفسير في القرن الخامس الهجري" عبد القاهر الجرجاني" (ت471ه) بعد أن ألّف كتاب "دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة" ورسالته التي أسماها: الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم".(البيومي،1971، ص121-122)

وفي القرن السادس اشتهر الزمخشري (ت538 هـ) الذي ألّف " تفسير الكشاف" حيث طبّق فيه صاحبه نظرية النظم التي أرسى قواعدها الجرجاني فكان تفسيرا لغويا بيانيا تطبيقيا بامتياز حتى وإن تخللته بعض أفكار الاعتزال التي انتصر لها صاحبها في تفسيره.(حريز،2006، ص61)

وفي نهاية القرن نفسه ألّف فخر الدين الرازي (ت606ه) رسالته " نهاية الايجاز في دراية الاعجاز"، وفي القرن السابع ألف أبو الاصبع كتابيه: "بديع القرآن" و"الخواطر السوائح في أسرار الفواتح"، و في القرن الثامن وضع "الامام يحي بن حمزة العلوي" (ت 749ه) كتابه "الطراز" الذي أملاه على أصحابه بناء على طلبهم، وذلك بعد أن قرؤوا تفسير الكشاف.

أما القرن التاسع فقد عرف بكتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات و السور" لصاحبه برهان الدين بن عمر البقاعي (ت 885ه)، وتبعه السيوطي(ت911ه) في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر فألف كتاباً على منواله سمّاه " تناسق الدرر في تناسب السور". ولم يصلنا كتاب في هذا اللون من التفسير يعود للقرن الحادي عشر أو القرن الثاني عشر، أما عن القرن الثالث عشر فقد ألف فيه" الألوسي" (ت1217) تفسيره" روح المعاني" اهتم فيه بالمسائل البلاغية والنحوية حتى عدّه بعض المعاصرين امتدادا لتفسير الزمخشري. (حفني، 1390ه، ص303)

بعد هذه الاشارة السريعة _ التي لم توفي هذا التفسير حقه و إنما فقط أردنا الإشارة إلى وجود التفسير البياني للقرآن الكريم عند الأقدمين _ لتاريخ التفسير

البياني من جذوره الأولى إلى القرن الرابع عشر للهجرة ننتقل إلى امتداد هذا اللون من التفسير في العصر الحديث و أشهر من عرف به و كتب فيه.

المحور الثالث: التفسير البياني عند المحدثين:

كان انتهاء القرن الثالث عشر مؤذنا بانحدار العلوم العربية والدراسات الإسلامية، فاختفت لوامع الابتكار و ساد الترديد و التقليد و كذا الجدل حول المسائل التي خلّفها التراث، فأصاب كلا من البلاغة و التفسير نوع من الهبوط الفكري تبعه هبوط مماثل أصاب التفسير البياني-إذ هو نتيجة متوقعة لكل ما يجِدُّ في حقل التفسير و البلاغة من أوضاع-، فقد تاه العالم الاسلامي في ظلمات تتكاثف فلا تدع للنور طريقا هذه الظلمات التي طمست معالم الإسلام و سلبت أهل القرآن روح الحياة بعد أن كانوا حماة الفكر و قادة التقدم و أهل الابتكار، فتملكهم الجمود الفكري فأصبحوا أسرى الأوهام ومرتع الاستعمار. (البيومي، 1971، ص256، وص283)

أولا_ بوادر التفسير البياني عند محمد عبده:

بعد الجمود الفكري الذي أصاب العالم الاسلامي تلك الفترة نتيجة الحروب والاستعمار نهض محمد عبده(1266 ه – 1323 ه) في مطلع القرن الرابع عشر بتفسير القرآن لا ليضم نسخة جديدة تتشابه مع تفاسير من سبقوه بل ليجعله صيحة البعث، فكان صاحب دعوة إسلامية تنبه الغافلين وتهدي الحائرين، فكانت دروسه القرآنية دائرة معارف تلبي حاجة اللغوي والفقيه ورجل الاجتماع وكل طالب للعلم ملتمس للحقيقة، وليس مجالنا التطرق لهذه المعارف في موضوعنا هذا، بل ما يهمنا هو كيف فسر محمد عبده القرآن تفسيرا يعيد السامعين إلى عهود البلاغة العريقة.

ورغم أنه لم يترك لنا كتابا شاملا للتفسير البياني إلا أننا عندما نقرأ ما بقي لدينا من تفسير الرجل نجد أنه قد وضع حجر الأساس في نهوض التفسير البياني في العصر الحديث و ذلك حين حدد لتلاميذه الشروط التي يجب على المفسر التزامها، والمتمثلة باختصار في:

1 – فهم حقائق الألفاظ التي أودعها القرآن وتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، ومن ثم يحث على تفسير القرآن بالقرآن نفسه وذلك بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه و ينظر فيه، وينظر كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب بين معانيه.

2 – يجب أن يكون محيطا بعلم الأسلوب والاعراب متقنا لعلمي المعاني والبيان.

3 – علم أحوال البشر.

4 – العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، يجب على المفسر أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم وكيف كان هذا القرآن سببا في هدايتهم.

5 – العلم بسيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها. (رشيد رضا، (د.ت)، ص21-24)

هذه أهم النقاط التي ركز عليها الشيخ محمد عبده في تفسيره والتي تدل على علمه وذكائه في تركيزه على الفوائد التي تحتاج لها حالة العصر، وكذا اهتمامه بالجانب البياني اهتماما يدل على سعة اطلاعه بالبلاغة وأسرارها: «إذ لم يعد الشرح البلاغي لديه يدور في أكثر مناحيه حول تحديد التشبيه والاستعارة والكناية في دائرة البيان أو يتقيد في أكثر أموره بمصطلحات الفصل والوصل والخبر والانشاء في دائرة الأسلوب الأدبي الواضح بأسراره السافرة، بحيث تطالعك روح البلاغة وجوهرها مطالعة تشبعك وترضيك". (البيومي،1971، ص297-298)

وهذا هو المفهوم الواسع للتفسير البياني الذي ظهر عند مفسري العصر الحديث، حيث خرجوا من الدائرة المغلقة التي سار عليها القدماء باتباعهم السكاكي في تقسيمه للبلاغة إلى علم المعاني والبيان والبديع ومن ثم تقسيمهم علم البيان إلى التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز دون أن يولوا اهتماما أكثر بمفهوم البيان الشامل لجميع أسرار التعبير القرآني ونظمه الفريد ودقة اختيار ألفاظه ومن ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة.

بالرغم من أن الإمام محمد عبده لم يترك لنا تفسيرا مستقلا يعنى بالتفسير البياني إلا أن تفسيره لجزء عم و كذا ما ورد في تفسير المنار يجعلنا ندرك ما لهذا الرجل من حس فني بلاغي في رسم الصور انتقاء الكلمات وائتلاف السياق، فضلا عن قوته العقلية ونظرته الأدبية التي تدفعه إلى إيراد آراء حية في الأسلوب البياني للقرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿والفجر و ليال عشر﴾ (الفجر 1 -2) بأن الفجر هاهنا "هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الأسود، وينبعث الضياء لمطاردة الظلام، وهو وقت تنفس الصبح، و هو معهود في كل يوم، فصحّ أن يعرّف بالألف و اللام، والمراد – و اللّه أعلم – من ليال عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر، و هي ما يكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ول+-ا يزال الضوء إلى الليل ،و ضوء الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه". (عبده،(د.ت)، ص80)

والأمثلة كثيرة على تفسيره البياني ولكن المقام هنا لا يستدعي التفصيل بقدر ما يستدعي انتقاء بعض الأمثلة البيانية التي تدل على أن محمد عبده كان فعلا من أهل التفسير البياني وروّاده حتى إن غلب على تفسيره الطابع الاصلاحي الاجتماعي والنفسي، وقد تبعه في ذلك تلاميذه ونهجوا نهجه في التفسير البياني ومن بينهم: الشيخ محمد مصطفى المراغي، والأستاذ عبد القادر المغربي، والأستاذ إبراهيم الجبالي، والأستاذ محمد رشيد رضا.

ثانيا_ أمين الخولي ودوره في تأصيل المنهج البياني في التفسير:

لم يدرس السابقون البيان القرآني كغاية في حد ذاته لذلك لم ترد في مؤلفاتهم محاولة تأصيل للمنهج البياني في التفسير وتحديد معالمه، وإنما تناول كل منهم جانبا أو جوانب معدودة، فقد كانوا فقط يلتقطون شواهد منه على قواعدهم البلاغية والنحوية ولم يحاولوا التأصيل للمنهج أو وضع خطوات يسير وفقها المفسر للوصول إلى تفسير شامل وكاشف لأسرار البيان والتعبير في القرآن الكريم، وهذا الذي حاول أن ينهض به أمين الخولي(1313 ه-1385ه) في القرن الرابع عشر هجري، وبالتحديد في كتابه مناهج التجديد، و ذلك بمحاولته وضع منهج له خطوات يسير وفقها المفسر للوصول إلى التفسير البياني

وهذه الخطوات نذكرها باختصار كما جاءت في كتاب أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي: (الرومي، 1419هـ، ص108-109)

أولاً: أن يجمع المفسر الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض ويتدبرها جميعا ويفسرها.

ثانياً: أن يرتب آيات الموضوع الواحد ترتيبا زمنيا حسب تاريخ نزولها.

ثالثاً: أن يدرس دراسة خاصة ما حول النص كتاريخه وأسباب نزوله وجمعه وكتابته وقراءته ونحو ذلك من علوم القرآن.

رابعاً: أن يقدم دراسة عامة للبيئة التي نزل بها هذا النص، البيئة المادية المتمثلة في الأرض والسماء والجبال والسهول والأودية، والبيئة المعنوية المتمثلة في تاريخ هذه الأمة وأعرافها وعاداتها وتقاليدها.

خامساً: دراسة النص القرآني في مفرداته وذلك بدراسة:

أ-استعمالات هذه المفردة لغويا.

ب-دراسة استعمالاتها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة و مدلولها في كل موضع.

سادساً: دراسة النص القرآني في معانيه المركبة، وذلك عن طريق العلوم الأدبية من نحو وصرف

تلكم هي أبرز النقاط التي رسمها أمين الخولي للتفسير البياني والتي سارت وفقها تلميذته وزوجته عائشة عبد الرحمان المعروفة بعائشة بنت الشاطئ_ (1913-1998 م) وظهر تأثرها به واضحا جليا في كتاباتها التي نذكر منها: التفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني ومسائل ابن الازرق، القرآن والتفسير العصري، وكذا في بحوثها المنشورة: كتابنا الأكبر، من أسرار العربية في البيان العربي. (جبر،2001، ص264-267)

ثالثا_التفسير البياني عند السامرائي:

وفي العصر الراهن نجد أيضا بروز مفسر بياني مختص في النحو و التعبير القرآني ألا وهو الدكتور فاضل صالح السامرائي(ولد 1933م – أطال اللّه في عمره) الذي قدم دراسات تطبيقية في التفسير البياني وذلك لطلاب الدراسات العليا في المعاهد والكليات، ولم تقتصر جهوده على تلك المحاضرات التي كان يلقيها على طلابه بل ذاع صيته في العالم الاسلامي بعد أن ألقى دروسه في حصة لمسات بيانية في قناة الشارقة.

وقد ألّف السامرائي مجموعة معتبره من الكتب في التفسير البياني رغم أنه خاض هذا المجال في سن متأخرة، وذلك بعد أربعين سنة من تدريسه لمادة النحو. (الحديثي، 2003، ص300).

ونذكر منها: قبسات من البيان، التعبير القرآني، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، أسئلة بيانية بجزأيه، على طريق التفسير البياني بأجزائه الثلاث، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، وغيرها من الكتب التي اختصت بممارسة التفسير البياني لا مجرد التنظير له أو إعادة ما جاء في كتب القدماء، فقد كان تفسيره محاولة لتجديد المنهج البياني في التفسير، وإعطاء تعليلاته الخاصة وإضافاته على المسائل التي لم تقنعه في تفاسير السابقين.

ومن خلال تعريفه للتفسير البياني ووضعه لشروط المتصدي للتفسير البياني يتبين لنا توجهه وأهم النقاط التي ركز عليها في تفسيره.

1-**تعريف التفسير البياني من وجهة نظر السامرائي**: "هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير". (السامرائي، 2002، ص7)

و قد كانت هذه النقاط التي ذكرها في تعريفه هي الأساس الذي ركز عليه في كتبه فكان تفسيره جامعا بين اهتمامه بالمواضيع: التقديم و التأخير والذكر والحذف والاختلاف والتشابه من جهة، وبين إبراز النواحي البيانية لبعض الآيات القرآنية أو السور القصار من ناحية أخرى.

2-**شروط المتصدي للتفسير البياني**: (السامرائي،2002، ص7-14)

1 – التبحر في علوم اللغة والتصريف والنحو والبلاغة.

2 - العلم بالقراءات.

3- العلم بأسباب النزول.

4 – النظر في السياق.

5 – مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها.

6- مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير الذي يراد تبيينه ليتخلص المعنى المقصود

7 – أن يعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني كاستعمال الريح للشر والرياح للخير والغيث للخير والمطر للشر وغير ذلك.

8-أن ينظر في الوقف والابتداء وأثر ذلك في الدلالة والتوسع في المعنى أو التقييد فيه وما إلى ذلك

9 – أن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة والعبارة ولو كان فيما يبدو له غير ذي بال فإنه ذو بال، فإن وجد له تعليلا فذلك وإلا سيأتي من ييسر اللّه له تعليله وتفسيره.

10 _ إدامة التفكر والتدبر وهما من أهم ما يفتح على الانسان من أسرار ويهديه إلى معان جديدة .

11 – أن يكون قد اطلع على جملة صالحة مما كتبه من تقدمه من مشاهير المفسرين ونظر في كتب علوم القرآن وكتب الإعجاز وكتب المتشابه وتناسب الآيات و السور وما إلى ذلك مما كتب في أسرار التعبير القرآني فإن فيها أسرارا بيانية وفنية بالغة الرفعة.

12 – الموهبة: وهي أساس كل علم وفن وصنعة، فبقدر ما أوتي الفرد من موهبة يكون شأنه في العلم الفن، على ألا يعتمد على الموهبة وحدها بل عليه أن ينميها و يصقلها بكثرة الاطلاع والنظر والتدقيق والتأمل.

هذه أهم النقاط التي ذكرها فاضل صالح السامرائي والتي تعد خطوات رائدة في مجال التفسير البياني يجب على المفسر التحلي بها، ولم يقتصر على هذه الشروط بل إن القارئ في مقدمات وثنايا مؤلفاته يجد من القواعد البيانية والخطوات الأساسية التي تؤصل للتفسير البياني الشيء الكثير، فقد اجتهد في إثراء التفسير البياني بدراساته التطبيقية والمستجدة وبذلك خدم التفسير البياني بتطبيق جزء معتبر من منهج أمين الخولي وإثرائه بتعليلاته وآرائه وقواعده وخرج بالمنهج البياني من التنظير إلى التطبيق، ومن التكرار إلى التجديد، ومن التفرق إلى الشمول وذلك بإفراده لكتب خاصة ومستقلة في التفسير البياني الذي كان يدرس فقط في ثنايا كتب الإعجاز والبلاغة وعلوم القرآن، وهذا فضل كبير نشهد له به.

خاتمة:

تصل الدراسة إلى أن هذا المنهج من التفسير قد تطور عبر مراحله التاريخية منذ بذرة الأولى التي بذرها الرسول عليه وسلم وسقاها من جاء بعده من المفسرين ،فقد كان مجرد ملكة لغوية في الصدر الأول، ثم تشكل معرفيا في الصدر العباسي، ليضبح منهجا مستقلا له قواعده وأسسه وخطواته مع أمين الخولي مؤصل هذا المنهج، وبالرغم من كثرة المؤلفين في هذا المنهج من االتفسير في العصر الحديث إلا أنه لم يلق نضوجا كافيا عبر مراحل تطوره التاريخي وأنه لا يزال بعيدا كل البعد عن ملامسة جوهر العلاقة بين جانبيه النظري والتطبيقي ،هذا فضلا عن قصور الجهود في تطبيق هذا المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم كله في العصر الحاضر ونحن بحاجة لمضاعفة الجهود ومحاولة النهوض بتفسير بياني شامل للقرآن الكريم يتجاوز به صاحبه جهود السابقين ويؤصل لمنهج بياني في التفسير قائم على التجديد والاتساع و الكلية ليكون ثمرة لهذا التاريخ الطويل الذي مر به التفسير البياني.

المصادر والمراجع:

1_أحمد الهاشمي: تع: سليمان صالح، جواهر البلاغة، دار المعرفة، بيروت، 2007.
2_ابن جرير الطبري :جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1978، ج3.
3_أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د، ت)،.
4_بهجت عبد الغفور الحديثي: القصيدة الاسلامية و شعراؤها المعاصرون في العراق، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003.
5 _جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب: ضبط وشرح: عبد الرحمان البرقوقي، التلخيص في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، 1904.
6_ حسن جبر: بنت الشاطئ من قريب، دار الكتب الحديث، 2001.
7_حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، 1390هـ.
8_ سامي محمد هشام حريز: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقا، دار الشروق، عمان، 2006.
9_عمرو بن بحر الجاحظ: تح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي للنشر، القاهرة، مصر،1998، ج1.
10_فاضل صالح السامرائي: على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الشارقة، 2002،
11_فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997، ج1.
12_فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الرياض، 1419.
13 - محمد رجب البيومي: خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1971.
14_ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، (د، ت)، ج1.
15_ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984)،ج1.
16_محمد عبده: تفسير القرآن الكريم – جزء عم –، دار الكتب، الجزائر، (د، ت).
17 _ منصور كافي: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق، دار العلوم، الجزائر، 2006.